لباب الآداب

تأليف

الأمير أسامة بن منقذ

٤٨٨ - ٥٨٤

تحقيق

أحمد محمد شاكر

منشورات مكتبة السنة بالقاهرة لصاحبها شرف حجازي

نشرت هـــذه الطبعة عن :
الطبعة الأولى سنة ١٣٥٤

حقوق الطبع محفوظة للناشر
« بالتعاقد مع ورثة المحقق »

١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م

مكتبة السنة
الدار السلفية لنشر العلم
دار تراثية للنشر والتوزيع والطباعة والبحث العلمي وتصدير واستيراد الكتب
القاهرة - ٨١ شارع البستان (ناصية شارع الجمهورية) ميدان عابدين
هـاتف ٣٩٠٠٣١٨ فاكس ٣٩٢٦٢٥٠ - ص.ب ١٢٨٩ القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

هذا كتاب (لباب الآداب) ألفه أحد أبطال الاسلام وفرسانه : (الأمير أسامة بن منقذ) (٤٨٨ — ٥٨٤ هجرية) رحمه الله رحمة واسعة .

عهد إلىّ بتصحيحه صديقى الفاضل الأديب لويس سركيس . وكانت نسخته الأصلية المخطوطة عند أستاذنا الكبير العلامة الدكتور يعقوب صروف صاحب مجلة (المقتطف) الغراء . وقد وصفها وصفاً جيداً فى المقتطف (شهر ديسمبر سنة ١٩٠٧ مجلد ٣٢ صفحة ٩٥٣ — ٩٦٠) ستراه فيما يأتى .

وفى دار الكتب المصرية نسخة نقلت عنها بالتصوير الفتوغرافى برقم (٤٧٠٠ أدب) وعندنا صورة أخرى منها .

وهذه النسخة هى نسخة المؤلف كتبت فى حياته (سنة ٥٧٩ هجرية) ثم أهداها لابنه الأمير (مرهف بن أسامة) .

وفى أثناء طبع الكتاب ، بعد إتمام (باب الكرم) وعند الشروع فى (باب الشجاعة) (ص ١٤٨) وجدنا نسخة أخرى منه فى دار الكتب المصرية ، دلني عليها صديقى الفاضل الأستاذ الشيخ محمد عبد الرسول . وكانت موضوعة فى الفهرس القديم فى علم التصوف .

وقد تفضل حضرة صاحب العزة الأستاذ الجليل (أسعد بك برادة مدير دار الكتب) باعارتى إياها لأستعين بها فى التصحيح .

وهى مكتوبة فى آخر (سنة ١٠٦٦ هجرية) . وهى نسخة غير جيدة ، وفيها تحريف كثير . ويظهر أن ناسخها كان يترك أشياء من الكتاب لاينقلها : إما اختصاراً ، وإما كسلاً ، وإما عجزاً عن قراءتها . ولكنها أفادتنا في التصحيح فى مواضع متعددة .

وكان أول همى أن أرجع إليها فى موضع الخرم فى النسخة الأصلية ، وهو الموضع الذى أشار إليه الدكتور صروف فى مقاله الآتى ، وهو فى الكتاب (ص ١٧ من النسخة المطبوعة) . فوجدت أن كاتبها وصل الكلام ببعضه ، فقال بعد قوله « ومن مزح استخف به » (ص ١٧ س ٢) — : « وقال الشاعر » ، ثم ذكر البيتين « لاتله عن أمر » الخ ، ولكنه كتبها « فلا تله عن أمر » . وجاء هذا الكلام في وسط الصفحة . ولذلك ظننت بادئ ذى بدء أن نسخة الدكتور صروف كاملة ، ولكنى تبينت بعد ذلك أن رأيه صحيح ، وأن النسخة مخرومة . لأن جملة « ومن مزح استخف به » جاءت فى آخر الصفحة هناك . ثم كتب الكاتب فى أسفل الصفحة كلمة « وَمَنْ أَكْثَرَ » ثم جاء فى أول الصفحة التالية قوله « لاتله عن أمر » .

وهذه الكلمة التى تكتب فى أسفل الصفحة تسمى فى اصطلاح الناسخين القدماء (التعقيبة) وهى تعاد مرة أخرى فى أول الصفحة التالية لتدل على أن الكلام متصل ، وعلى أنه لم يسقط شىء بين الصفحتين ، ولا تزال هذه الطريقة مستعملة فى المطبوعات القديمة و بعض المطبوعات الحديثة ، وهى معروفة إلى الآن فى الأوساط العلمية الأزهرية وغيرها .

و يظهر لى أن النقص فى النسخة قديم فى عصر المؤلف أو بعده بقليل ، وأن الناسخين نقلوا الكتاب على مافيه من خرْم ، لأن النسخة الأخرى الجديدة تخالف القديمة فى مواضع كثيرة : باختلاف الألفاظ و بالنقص و بالزيادة أيضاً — كما سترى

من المقارنة بينهما فى أثناء الكتاب — وهذا يدل على أن ناسخها لم ينقل عن الأصل العتيق الذى بين أيدينا ، بل نقل عن أصل آخر .

وقد أشرنا فى تعليقاتنا الى النسخة القديمة بقولنا « الأصل » والى النسخة الأخرى الحديثة برمز « ح » واليهما معاً بقولنا « الأصلين » .

ولقد عنيت بالكتاب ، و بذلت فيه جهداً كثيرا ، وحاولت أن أخرجه للناس مثالاً يحتذى فى جودة الطبع ودقة التصحيح . ولم يضن صديقى الفاضل الأديب لويس سركيس بشىء من النفقة فى سبيل ذلك .

وأعانى فى تصحيحه شقيقى الأصغر السيد محمود محمد شاكر . وكثيراً ما سهر الليالى فى تحقيق بيت شعر أو تصويب جملة . وأعانى أيضا صديقى الفاضل الشيخ محمد حامد الفقى فى مقابلة كثير من الكتاب على الأصلين ، وفى تخريج بعض الأحاديث الواردة فيه .

والمؤلف رحمه الله يذكر فى أوائل الأبواب بعض الأحاديث النبوية ، ولكنه لم يكن من العلماء بالسنة ، فيأتى بأحاديث منها الصحيح ومنها غير الصحيح . ولم أستجز لنفسى أن أترك حديثا واحداً من غير بحث عن أصله وصحته ، نصيحةً للأمة ، وأداءً للأمانة .

وعلى الرغم من كل هذا فانى عجزت عن معرفة كثير من الأحاديث التى فيه ، ولذلك أنصح كل قارئ أن لا يحتج بشئ من الأحاديث فى الكتاب الاّ بما صرحت أنه حديث صحيح أوحسن . وأما الأحاديث التى لم أكتب شيئا عنها أو أشرت الى أنى لم أجدها فانه لا يجوز الاحتجاج بها ، إلاّ أن يثبت للقارئ صحتها بالطريق العلمى الصحيح المعروف عند أهل هذا الفنّ . وهذا مما يجب على كل مسلم مراعاته بالدقة التامة فى كل كتاب . والحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد ، والاحتياط فيه واجب .

وقد وقعت فى الكتاب بعض أغلاط — مع كل ما عانينا فى تصحيحه — بعضها جاء سَهْواً منّي ، و بعضها جاء خطأ فى النظر ، و بعضها من الأغلاط المطبعية التى لا يتنزه عنها كتاب .

وأهمها أغلاط أربعة فى آيات قرآنية ، نرجو من القارئ أن يصححها بقلمه عند اقتناء الكتاب . وذكرناها وحدها فى أول الاستدراك الملحق به .

ثم إنى عنيت بوضع الفهارس المفصلة ، إذ هى مفاتيح الكتب ، فجعلت له فهارس خمسة : أولا : أبواب الكتاب . ثانيا : الأعلام . ثالثا : الأماكن . رابعا : أيام العرب . خامسا : قوافى الشعر .

وكنت أريد أن أضع فهرسا للآيات القرآنية ، وآخر للأحاديث النبوية . ولكنى وجدت فائدتهما فى الكتاب قليلة ، لأنه يذكر الآيات ثم الأحاديث فى أول الأبواب . فموضعها فيه معروف ظاهر .

وبعد : فانى لا أظننى مغالياً إذا قلت إن هذا الكتاب من أجود كتب الأدب وأحسنها ، وسيرى قارئه أنه يتنقل فيه من روض الى روض ، ويجتنى أزاهير الحكمة ، وروائع الأدب ، ويقتبس مكارم الأخلاق .

وفيه ميزة أخرى جليلة : أن فيه أقوالاً من نثر ونظم لم نجدها فى كتاب غيره من الكتب المطبوعة ، فقد وجدنا فيه أبياتا لعامر بن الطفيل لم تذكر فى ديوانه المطبوع فى أوربا ، مع أن المستشرق الذى طبعه جمع فيه كل ما وجد لعامر فى كتب الأدب الأخرى . ووجدنا أبياتاً أخرى لمالك بن حريم الهمدانى لم نجدها فى غيره من الكتب ، وكذلك لابن المعتز ولأبى العلاء المعرّى ، ولغيرهم .

وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا للعلم النافع والعمل الصالح ؟

مساء الأحد ثانى صفر الخير سنة ١٣٥٤

٥ مايو سنة ١٩٣٥

كتبه

أبو الأشبال

أحمد محمد شاكر

مقدمة الكتاب

بقلم الدكتور يعقوب صروف

منشئ مجلة المقتطف

كتاب لباب الآداب

وقع لنا فى هذه الأيّام كتاب من خيرة كتب الادب العربيَّة ، وضعه كاتب من مشاهير الكتَّاب ، وهو أسامةُ بن مُرْشِد بن على بن مُقَلَّد بن نصرِ بن مُنْقِذِ الكناني . والنسخة التى وقعت لنا هى النسخة الأصلية التى كتبت للمؤلف سنة ٥٧٩ للهجرة ، وقد وهبها لابنه ، وكتب ابنهُ عليها بيدهِ يقول إن أباهُ وهبهُ إياها كما سيجىءُ . فهي من أقدم كتب الخط العربيَّة المحفوظة إلى الآن .

والكتاب متوسط الحجم ، طوله ٢٣ سنتمتراً ونصف سنتمتر ، وعرضه ١٥ سنتمتراً ، وفيه ٢٤٩ ورقة فى واحد وعشرين كراساً لا ينقصه إلاَّ ست ورقات من الكراس الثانى وجانب من حاشية الورقة الاخيرة .

واسم الكتاب فى الصفحة الأولى أبيض تحيط بهِ نقوش مذهبة وزرقاء ، وتحتهُ اسم المؤلف ويحيط بالاثنين برواز منقوش . وقد تفنن ولدُه فى ما كتبهُ ، فرسم حولهُ دوائر تحيطُ بهِ كالغيوم بحبر أسود وذهبى ، وملأ مابين السطور بنقوش عقفاء تدلُّ على أن الناس كانوا قد خرجوا من قيد الخطوط المستقيمة ، وعكفوا على المنحنيات شأن المصورين . وخط الكتاب واضح جميل ، وحبرهُ أسود برَّاق ، وحروفه المعجمة منقوطة غالباً ما عدا الكلمة التى تكتَب فى آخر الصفحة وتعاد فى الصفحة التالية ، فانها غير منقوطة فى الغالب ؛ ويحتمل أن

يكون النقط طارئاً على الكتاب ، لكنّ هذا الاحتمال بعيد ، لأن حبر النقط مثل حبر الحروف تماماً ، وحجمها يدل على أنها مكتوبة بالقلم الذى كتبت به الحروف . ويمتاز بتعلق بعض الحروف المنفصلة : فاذا وقعت بعد الألف دال ، أو ذال ، أو عين ، أو غين علقت الألف بها ، كما تعلق باللام فى الخط الديوانى ؛ وإذا وقعت بعد الدال ياء متطرفة مثل « عندى » علقت بها ، وكثيراً ما توصل الكلمة الواحدة بالتى بعدها . وتترك الكاف أحياناً من غير شرطة ولا سيما إذا كانت فى أول الكلمة . وليس فى وسط الكاف الأخيرة كاف صغيرة . وقلما توضع علامة للحروف المهملة .

وفى الكتاب علامات تدلُّ على أن الناسخ قرأه للمؤلف، فأصلح فيهِ قليلا ؛ لكنَّ المؤلف لم يقرأْهُ بنفسهِ ، إمَّا لضعف بصرهِ فى شيخوختهِ ، أو لسبب آخر ؛ لأن الكاتب يخطىء أحياناً خطأً صرفياً لا يدركه مَن يسمع ولا يقرأ ، ولو رآه المؤلف لأصلحه حتما [1] .

وهذه الأمور العرضية يعنى بها اليوم جماعة من العلماءِ الذين يبحثون عن الخطوط والكتب القديمة : ألمعنا إليها إلماعاً ؛ وجوهر الكتاب قائم بموضوعه وأسلوبهِ ، فقد قسمه المؤلف إلى سبعة أبواب وهي : باب الوصايا ، وباب السياسة ، وباب الكرم ، وباب الشجاعة ، وباب الآداب ، وباب البلاغة ، وباب ألفاظ من الحكمة فى معانٍ شتى .

ويبتدىء الباب بآيات من القرآن ، تتلوها أحاديث نبوية ، ثم أقوال حكميَّة يتمثل بها ، ونوادر وأشعار ونحو ذلك مما يرى بعضهُ فى كتاب « الغُرَر والعرر » للوطواط ، وكتاب « محاضرات الأدباء » للراغب الأصبهانى .

---

(١) وفى الكتاب مواضع من خطأ السماع تدل على أن المؤلف أملى الكتاب إملاء . وهو مايسمى عند المحدثين فى علم المصطلح « تصحيف السماع » . انظر شرحنا على الفية السيوطى (ص ٢٠٠) كتبه أحمد محمد شاكر

والمؤلف كاتب مشهور ، ترجمهُ ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » .

[ثم نقل ترجمة المؤلف عن ابن خلكان ، وقد حذفناها اكتفاء بالترجمة التى ستقرؤها فيما يأتى]

وواضح من ذلك [1] أن المؤلف ألَّف كتاب « لباب الآداب » قبل وفاته بنحو خمس سنوات ، فألَّفهُ وهو شيخ عرك الدهر واجتنى ثمار الاختبار .

وقد صورنا منه النصف الأعلى من الصفحة الأولى بعد الفهرس ، والنصف الأعلى من الصفحة الأخيرة ، كما ترى فى صدر هذه المقالة [2] . وهاك قراءة ما فيها سطراً سطراً :

الصورة الاولى :

كتاب لباب الآداب

تأليف أسامة بن مرشد بن مقلد بن نصر
ابن منقذ الكنانى غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين
حبانى مولاى والدى مجد الدين مؤيد الدولة
وفقه الله بهذا الكتاب الذى هو من تأليفه
بدمشق المحروسة فى شهور سنة اثنتين وثمانين وخمس مائة
وكتبه ولدهُ مرهف بن أسامة حامداً ومصلياً

الصورة الثانية :

[فرحم الله كر] يماً وقف عليهِ وتصدق على مؤلفهِ بدعوة صالحة
. . . . يثيبه الله تعالى عنها ويجزل حظه منها فهو سبحانه
[من الدا] عى قريب يسمع ويجيب
[وكان الف] راغ منهُ فى صفر سنة تسع وسبعين وخمس مائة

(١) أى مما نقله عن ابن خلكان أن المؤلف مات سنة ٥٨٤ .

(٢) ونحن قد صورنا الصفحة الأولى كلها ، وكذلك الصفحة الأخيرة والتى قبلها .

[والحمد لله و] حدهُ وصلواتهُ على سيدنا محمد نبيه وصحبه وسلامهُ

ناسخه الفقير الى رحمة ربه

[غ] نايم [1] الناسخ المعرى غفر الله لهُ ولوالديهِ

ولجميع المسلمين

وقد أشكلت علينا قراءة اسم ابنه فى خطه ، واتفق أننا فتحنا « وفيات الأعيان » لنقرأ ترجمة الملك الأفضل ، والد السلطان صلاح الدين ، فاذا فيه : ورأيت فى تاريخ كمال الدين بن العديم فصلا نقلهُ من تعليق العضد مرهف بن أسامة بن منقذ الخ . فاتضح لنا من ذلك اسمهُ وأنهُ أديبٌ ابنُ أديب .

والظاهر أن المؤلف نقَّحَ الكتاب بعد أن تمَّ تبييضهُ ونسخهُ ، فقطع الأوراق الأولى من أوائل الأبواب ، وأبدلها بغيرها وزاد فيها كثيراً من الآيات والأحاديث . وهو فى الأصل واحد وعشرون كرَّاسا ، فى كل كراس منها عشر ورقات ، أى إنه كان ٢١٠ ورقات ، لكن فيه الآن ٢٤٩ ورقة . وفى كل صفحة من الصفحات الأصلية ١٣ سطراً ، لكن الورقات التى زيدت فيه يختلف عدد سطورها ، فيزيد تارة حتى يبلغ ٢٠ سطراً ، وينقص أخرى حتى يبلغ ١١ سطراً . والخط والحبر فى بعض هذه الأوراق غير جيدين ، كأنها مقحمة فى الكتاب بعد حين . ولكن أكثره بالخط الجيد ، والحبر الجيد ، ولا شبهة فى أنه هو الأصل ، كما هو واضح من وضع الكراريس ، ولأن المؤلف يذكر فيه أهلهُ وبلده ومؤلفاته وبعض مالقيه فى سفراتهِ ، كقولهِ عن على بن أبى طالب [2] : « وقد

(١) . . . كتب الينا الأستاذ درنبرج المستشرق الشهير من باريس يقول: إن الكلمة التى تعذرت علينا قراءتها فى اول السطر الثانى من الصفحة الأخيرة هى كلمة (عالية) واسم الناسخ (غنايم) فنرفع الى حضرته واجب الشكر ، وما هى أول مرة أخذنا لغتنا عن أعجمى (المقتطف ٣٣ : ٣٠٨) .
اقول : هكذا قال الدكتور نقلا عن رأى المستشرق ، ولكن تبين لنا من النسخة ـ أن الكلمة التى فى أول السطر الثانى من الصفحة الأخيرة هى : (يهديها اليه) . ؟ كتبه احمد محمد شاكر

(٢) (ص ١٧٣ من هذه المطبوعة) .

ذكرت شيئاً من حروبه ووقعاته فى كتابى المترجم بكتاب فضائل الخلفاء الراشدين » . وقوله [1] : « كان بيننا و بين الاسماعيلية قتال فى قلعة شيْزَر فى سنة سبع وعشرين وخمس مائة ». وقوله [2] : « وقد كان عندنا بشيزر رجل يقال له محمد البشيبش كان يخدم جدّى سديد الملك أبو الحسن على بن نصر بن منقذ الكنانى ، رحمه الله » . وقوله [3] : « قرأت على حائط مسجد بديار بكر سنة خمسة وستين وخمس مائة :

صُن النفسَ وابذل كل شىء ملكتهُ ... فان ابتذال المال للعرض أصونُ
ولا تطلقنْ منك اللسان بسوءة ... ففى الناس سوءات وللناس ألسنُ
وعينك إن أبدت لديك معايبا ... لقوم فقل : يا عين للناس أعينُ
ونفسك إن هانت عليك فانها ... على كل من تلقى أذلُّ وأهونُ » .

فهل من أديب من أدباء ديار بكر يبحث عن هذا المسجد ، و ينبئنا عما على حائطه من الأشعار ، عساه لا يزال قائماً كما كان ؟

ثم شرع الدكتور فى نقل بعض فقرات من الكتاب لم نجد فائدة فى إعادتها هنا

ثم كتب عنه مقالاً آخر في عدد (ابريل سنة ١٩٠٨ مجلد ٣٣ ص ٣٠٨ — ٣١٣) نقل فيه فقرات أيضا ، وفى آخرها حكاية بطرك مصر مع الملك العادل بن السلار وطلب ملك الحبشة منه عزل بطرك الحبشة (ص ٧٢ — ٧٣ من هذه الطبعة) وقال عقب ذلك : « فهذا أمر جرى منذ نحو ثمانمائة سنة فى هذ القطر وفى هذه العاصمة ، رآه مؤلف هذا الكتاب بعينه ، وسمع ماقيل فيه بأذنه ، وهو كأنه حدث أمس ، وكتب عنه كما نكتب عنه اليوم . مرت ثمانمائة سنة والعادات لم تتغير ، ولغة الكتاب لم تختلف اختلافا يذكر » .

---

(١) (ص ١٩٠) . (٢) (ص ١٩٢) . (٣) (ص ٢٦٢) .

ثم كتب مقالا ثالثاً فى عدد (مايوسنة ١٩٠٨ مجلد ٣٣ ص٤٧٩ — ٤٨٣) قال فى أوله : « فى كتاب لباب الآداب أمور كثيرة مذكورة فى كتب الأدب ، وفيه أمور أخرى وقعت للمؤلف أو حدثت فى زمانه . والغالب أنه لم يذكرها أحد غيره ، كقصة بطريرك الأقباط التى نقلناها عنه فى مقتطف ابريل . وها نحن موردون الآن حوادث أخرى حدثت فى زمانه ، لاقصد الفكاهة ، بل للاستدلال بها على شىء من أحوال الناس فى عصره ، أى منذ نحو ثمانمائة سنة » .

ثم نقل حكايات من الكتاب ، منها حكاية فتح الافرنج انطاكية (ص ١٣٢ — ١٣٤ من هذه الطبعة) وحكاية المؤلف مع شيخه ابن المنيرة حين هجوم الاسمعيلية على حصن شيزر (ص ١٩٠ — ١٩١) وحكاية زهر الدولة بختيار مع الأسد (ص ١٩٩) ثم قال :

« نقف الآن عند هذا الحدّ ، وفى النوادر التى نقلناها أمور كثيرة حرية بالنظر . من ذلك ذكره كلمة الافرنج بهذا اللفظ الشائع الآن فى مصر والشأم ، فاستعمالها كذلك قديم ، ولا داعى للعدول عنه إلى كلمة فرنج أو فرنجة . ولم نَرَ فيما لدينا من التواريخ إشارة إلى قصة بغدوين ملك القدس وجوسلين صاحب تل باشر ، لكن أبا الفرج قال فى تاريخه إن بغدوين مات فى القدس ووصى بتبلاده للقمص صاحب الرها ، وهو الذى أسره جكرميش وأطلقه سقاوو جاولى . وعليه فاسم الموصول راجع إلى بغدوين لا إلى القمص ، إذا كان مراد أبى الفرج الاشارة إلى أسر بغدوين مع جوسلين واطلاق جاولى سقاوى لهما . وجاء فى تاريخ الصليبيين للسر جورج كوكس أن جوسلين أعان بلدوين البرجى حتى خلف الملك بلدوين الثانى ، فجعله بلدوين البرجي أميراً على الرها . لكن جوسلين هذا أسر أخيراً سنة ٥٤٦ ومات أسيراً ، فهل هو جوسلين عينه الذى أسر أولا سنة ٤٩٠ ؟ . أو إن أسامة لم يكن يدقق فى ذكر السنين ، كما يظهر مما نقلناه عنه فى الجزء الماضى ، حيث

قال : إنه كان فى مصر سنة ٥٤٧ فى عهد الملك العادل ، مع أن الملك العادل خلف الملك الصالح سنة ٦٥٥ .

وكيفما كانت الحال فالقصة محتملة الصدق ، ولا بد من أنها كانت تروى فى عهده حتى تمثل بها . وهى تماثل مايروى عن أخلاق فرسان الصليبيين وشهامتهم وحفظهم للذمام ، وما كان جاريا فى ذلك العهد من استعانة أمراء المسلمين بأمراء الصليبيين ، وأمراء الصليبيين بأمراء المسلمين .

ومنها اهتمام أمراء المسلمين بتعليم أولادهم ، فقد كان أبو أسامة مستخدماً شيخاً من كبار العلماء لتعليم أولاده ، وظهرت نتيجة تعليمه فى تفوق أسامة فى الانشاء ، نثراً ونظما .

ومنها أن ذلك الزمان كان زمان حروب متتابعة ، ولذلك كانوا يضطرون أن يقيموا فى الحصون و يصعدوا إليها بالحبال .

ومنها أن الاسود كانت لاتزال كثيرة فى بلاد الشأم ، أو فى أطرافها ، فَذُكِرَ هذا الأسد من غير استغراب ، وقد انقرضت الأسود منها الآن . . .

وواضح مما ذكره هنا أنه ألف كتاب (لباب الآداب) وعمره أكثر من تسعين سنة [1] ، فهو ثمرة يانعة من ثمار عقله ، بعد أن حنكته التجارب ، وراضته الايام .

وفى الكتاب أدلة على أن الكاتب بَيَّضَ مسودات كانت عند أسامة وخطها غير جلىّ ، لانه ترك بعض الأعلام الأعجمية ثم كتبها بقلم آخر وهو يقرأ الكتاب على المؤلف ، أو أخطأ فى كتابتها ثم أصلحها لما قرأ الكتاب . أما دعاء أسامة على الافرنج بقوله : خذلهم الله (ص ١٣٢) فأقل مما كان يستعمله غيره من كتاب عصره » . اهـ كلام العلامة الدكتور يعقوب صروف .

(١) صرح المؤلف فى آخر الكتاب (ص ٤٦٧) أنه ألفه وهو ابن إحدى وتسعين سنة .

استدراك على كلام الدكتور صروف

بقلم مصحح الكتاب

ولنا عليه استدراك فى قوله : « إن أسامة لم يكن يدقق فى ذكر السنين ، كما يظهر مما نقلناه عنه فى الجزء الماضى ، حيث قال : إنه كان فى مصر سنة ٥٤٧ فى عهد الملك العادل، مع أن الملك العادل خلف الملك الصالح سنة ٦٥٥ » .

وذلك أنه نقل فى ترجمة المؤلف أنه توفى سنة ٥٨٤ ، و بيده برهان ماديّ هو نسخة الكتاب (لباب الآداب) المخطوطة فى عصر المؤلف وعليها تاريخ كتابتها سنة ٥٧٩ . فمن الواضح إذن أن الملك العادل الذى كان بمصر سنة ٥٤٧ غير الملك العادل الذى كان بها سنة ٦٥٥ ، وبينهما أكثر من مائة سنة ، بل إن مؤلف الكتاب توفي قبل التاريخ الذى ذكره الدكتور صروف بأكثر من سبعين سنة ، فلن يكون هذا من أن أسامة لم يكن يدقق فى ذكر السنين .

و إنما حقيقة الأمر : أن لقب « الملك العادل » كان ذائعا فى تلك العصور ، وقد كان فى عصر المؤلف اثنان بهذا اللقب .

أحدهما : الملك العادل سيف الدين أبو الحسن على بن السلار ، وهو الذى نقل أسامة القصة عنه . وكان أسامة دخل مصر يوم الخميس ٢ جمادى الآخرة سنة ٥٣٩ فى خلافة (الحافظ لدين الله الفاطمى) ، ثم توفى الحافظ وجلس بعده فى كرسى الخلافة ابنه (الظافر بأمر الله) ، وهذا الظافر أسند الوزارة لابن السلار ، وخلع عليه خلع الوزارة ، ولقّبه (الملك العادل) . انظر (كتاب الاعتبار) للمؤلف (ص ٦ ـ ٨) ، ولهذا الملك العادل بن السلار ترجمة عند ابن خلكان (ج ١ ص ٤٦٧ — ٤٦٩) وذكر فيها أنه تولى الوزارة للظافر الخليفة سنة ٥٤٣ ودخل القاهرة فى ١٥ شعبان سنة ٥٤٤ ، وأنه مات بمصر قتيلا يوم السبت ١١ محرم سنة ٥٤٨.

والثانى : الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى ، وله ترجمة عند ابن خلكان (ج ٢ ص ١١٥ ـ ١١٧) وذكر فيها أنه ولد فى يوم الأحد ١٧ شوال سنة ٥١١ ، ومات يوم الاربعاء ١١ شوال سنة ٥٦٩ بقلعة دمشق . وهذا الملك العادل نور الدين لقيه المؤلف أسامة أيضا ، إذ أرسله اليه صديقه الملك العادل بن السلار فى سفارة سياسية حربية كما قال فى الاعتبار (ص ١٠) : « تقدم الى الملك العادل رحمه الله بالتجهز للمسير الى العادل نور الدين رحمه الله » ثم قال فى (ص ١٤) : « ووصلنا فى طريقنا الى بصرى فوجدنا الملك العادل نور الدين رحمه الله على دمشق » . ثم اتصل أسامة بعد ذلك بخدمته (ص ٣٤) .

وأما بعد عصر المؤلف ، وبعد زوال دولة الفاطميين ، فقد كان بمصر الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب بن شادى ، بويع بالسلطنة فى شوال سنة ٥٩٥ ، ثم حفيده الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، ولى الملك سنة ٦٣٥ . ثم خلع و بويع أخوه الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٣٦ ، ثم توفى سنة ٦٤٧ ، وخلفه ابنه الملك المعظم توران شاه ، ثم قتل يوم الاثنين ١٧ محرم سنة ٦٤٨ ، وتولت السلطنة بعده (شجرة الدر زوجة أبيه الملك الصالح) فى ٢ صفر سنة ٦٤٨ وخلعت نفسها بعد ثلاثة أشهر تقريبا . وكانت ختام الدولة الأيوبية . ثم بدأت دولة الأتراك . انظر تاريخ ابن اياس (ج ١ ص ٧٥ و ٨٢ و ٨٣ و ٨٥ و ٨٩ و ٩٠) .

وأنت ترى من هذه السلسلة التاريخية أن الملك العادل الأيوبى كان قبل الملك الصالح لا بعده ، وأنه تولى ملك مصر سنة ٦٣٥ لا سنة ٦٥٥ .

وأسأل الله سبحانه أن يوفقنا لما فيه رضاه ؟

كتبه

احمد محمد شاكر

عفا الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة المؤلف [١]

ولد يوم الأحد ٤٧ جمادى الآخرة سنة ٤٨٨ (يوليو سنة ١٠٩٥)

توفى ليلة الثلاثاء ٢٣ رمضان سنة ٥٨٤ (نوفمبر سنة ١١٨٨)

نسبه

أسامة بن مرشد بن على بن مُقَلَّد بن نصر بن مُنْقِذ [٢] بن محمد بن منقذ بن نصر بن هاشم بن سوار بن زياد بن رغيب بن مكحول بن عمرو بن الحارث بن عامر بن مالك بن أبى مالك بن عوف بن كنانة بن عوف [٣] بن عُذْرَةَ بن زيد اللات بن رُفَيْدَةَ بن ثَوْر بن كَلْب بن وَبَرَةَ بن تَغْلِبْ [٤] بن حُلْوان بن

---

(١) هذه الترجمة مقتبسة من : الاعتبار للمؤلف (طبعة برنستون) . ومختصر تاريخ ابن عساكر (٢ : ٤٠٠ ـ ٤٠٤) وابن خلكان (بولاق سنة ١٢٩٩ ، ١ : ٧٨ ـ ٨٠) ومعجم الأدباء لياقوت (٢: ١٧٣ ـ ١٩٦) والروضتين لأبى شامة (١ : ١٠٠ و ١١١ ـ ١٢٠ و ٢٦٤) وتاريخ الاسلام للذهبي (مصور فتوغرافى بدار الكتب المصرية) ومن مصادر أخرى تذكر فى موضعها .

(٢) بالذال المعجمة ، ووقع فى بعض الكتب المطبوعة مثل (الروضتين) بالدال المهملة ، وهو تصحيف ، فانه فى النسخة العتيقة من لباب الآداب — وهي نسخة المؤلف — بالذال المعجمة ، وإعجامها واضح جدا هناك وكذلك جاء فى قصيدة قافيتها بالذال المعجمة للقاضى ابن الذروي يمدح بها المبارك بن كامل ابن عم المؤلف ، نقلها ابن خلكان (١ : ٥٥٩) (٣) فى المعجم ، بكر ، بدل ، عوف ، وصححناه من طبقات ابن سعد (ج ٢ ق ١ ص٢٧) ومن ذيل المذيل للطبرى وهو الجزء (١٣ص٢) فى ترجمة زيد بن حارثة ، ومن سبائك الذهب (ص٣٠) ، وفى الاستيعاب (ج١ص١٩١) وأسد الغابة (ج ٢ ص٢٢٤) ، كنانة بن بكر بن عوف بن عذرة ، . (٤) بالتاء المثناة والغين المعجمة وكسر اللام . كما فى ابن سعد (ج٣ ق١ ص٢٧) فى ترجمة زيد بن حارثة . و (ج٤ ق ١ص١٨٤) فى ترجمة دحية الكلبي ، وفى ذيل المذيل للطبري (١٣ : ٢) وفى سبائك الذهب (ص٢٣) . وضبطه

عمران [بن الحاف[1]] بن قضاعة بن مالك بن عَمْرُو[2] بن مرة بن زيد بن مالك بن حِمْيَر بن سَبَأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان .

قال ياقوت : «هكذا ذكر هو نسبه ، وفيه اختلاف يسير عند ابن الكلبي»

أسرته

بنو منقذ : أسرة مجيدة ، نشأ فيها رجال كبار ، كلهم فارس شجاع ، وكلهم شاعر أديب . وكانوا ملوكا فى أطراف حلب ، « بالقرب من قلعة شيزر ، عند جسر بنى منقذ المنسوب إليهم ، وكانوا يترددون إلى حماة وحلب وتلك النواحى ، ولهم بها الدور النفيسة ، والأملاك المثمنة ، وذلك كله قبل أن يملكوا قلعة شيزر ، وكان ملوك الشأم يكرمونهم ، ويجلون أقدارهم ، وشعراء عصرهم يقصدونهم ، ويمدحونهم ، وكان فيهم جماعة أعيان رؤساء كرماء أجلاء علماء[3] » .

وحصن شَيْزَر : قلعة قريبة من حماة ، على بعد خمسة عشر ميلا منها ، ولم يزل قائما إلى اليوم ، معروف باسم «سيجر» تصحيف « شيزر » كما ذكر الأستاذ « فيليب حتي » فى مقدمة كتاب « الاعتبار » .

وكان الحصن «لآل منقذ الكنانيين ، يتوارثونه من أيام صالح بن مرداس[4] »

بالكتابة . ووقع فى معجم الأدباء « ثعلب » بالثاء المثلثة والعين المهملة وفتح اللام ، وكذلك فى الاشتقاق لابن دريد (ص٣١٤) والاستيعاب وأسد الغابة ، ووقع فى صبح الأعشى (ج١ ص٣١٦) وفى الانباه على قبائل الرواه لابن عبد البر (ص ١٢١) « ثعلبة » بزيادة التاء فى آخره . وكل هذا تصحيف ، وصوابه بالمثناة والغين المعجمة كما قلنا .

(١) «الحاف» بدون ياء «ويقال والحافي» بالياء ، وهذه الزيادة زدناها من أكثر المصادر التى نبهنا إليها.

(٢) فى معجم الأدباء « حمير » بدل « عمرو » ، وهو خطأ صححناه من المصادر المشار إليها ، ومن سبائك الذهب (ص ١٩) .

(٣) ابن خلكان (٢ : ١٥٥)

(٤) عن ابن الأثير (١١ : ٨٨) والروضتين (١ : ١١١)

وصالح هذا مَلَكَ حلب سنة ٤١٧ وقتل سنة ٤١٩ أو ٤٢٠ كما فى ابن خلكان (١ : ٢٨٦) و يظهر أنه خرج بعد ذلك من أيديهم إلى الروم ، واسترده منهم « سديد الملك أبو الحسن علي بن مقلد » جد المؤلف فى يوم السبت ٢٧ رجب سنة ٤٧٤ بالأمان بمال بذله للأسقف الذي كان فيه (انظر ذيل تاريخ دمشق لأبى يعلى بن القلانسي ص ١١٣ وابن خلكان ١:٤٦٤ ومعجم الأدباء ٢:١٨٧) و بقي الحصن فى أيديهم حتى خرب بالزلازل فى سنة ٥٥٢ وقتل كل من فيه من بنى منقذ تحت أنقاضه .

ورَأْسُ هذه الأسرة وزعيمها : أبو المتوّج مُقَلَّد بن نصر بن منقذ ، الملقب « مخلص الدولة » . قال ابن خلكان (٢: ١٥٥) : « كان رجلا نبيل القدر ، سائر الذكر ، رزق السعادة فى بنيه وحفدته » . مات بحلب فى ذى الحجة سنة ٤٥٠ وحمل الى كفرطاب . وكان الشعراء يقصدونه و يمدحونه ، ورثاه بعضهم بقصائد نفيسة ، منهم أبو محمد بن سنان الخفاجى مؤلف « سر الفصاحة » . ونقل أسامة فى هـذا الكتاب (ص ٣٦٨) أبياتا من قصيدة ابن سنان فى رثائه . ونقل ابن خلكان قصيدة « من فائق الشعر » لأبى يعلى حمزة بن عبد الرزاق بن أبى حصين فى رثائه أيضا .

ثم ابنه : أبو الحسن علي بن مقلد ـ جد المؤلف ـ الملقب «سديد الملك » . وكان أديباً شاعراً ، وشجاعاً مقداماً ، قوى النفس كريماً ، مات سنة ٤٧٥ ، ومدحه جماعة من الشعراء ، كابن الخياط وابن سنان الخفاجى .

ثم ابنه : أبو سلامة مرشد بن علي ـ والد المؤلف ـ الملقب « مجد الدين » ولد سنة ٤٦٠ ومات يوم الاثنين ٨ رمضان سنة ٥٣١ (٣١ مايو سنة ١١٣٦) . وكان فارساً شجاعاً ، ثابت الجنان عند البأس ، لايرتاع ، صالحا دائبا على مرضاة

ربه ، ليس له شغل سوى الحرب وجهاد الافرنج ونسخ كتاب الله عز وجل ، وهو صائم الدهر مواظب على تلاوة القرآن . وكان مغرما بالصيد لهجاً به ، له فيه ترتيب لانظير له فيما حكى ابنه عنه ، نسخ أكثر من أربعين مصحفا بخطه . وحضر وقائع كثيرة ، وفي بدنه جراح هائلة ، ومات على فراشه [1] .

وكانت امارة الحصن لأخيه الاكبر « نصر بن علي » فمات سنة ٤٩١ عن غير عقب ، ولما حضرته الوفاة عهد بالامارة إلى مرشد هذا فأبى زهداً فيها وقال : « واللهلاوَلِيتُها ، ولأخرجنَّ من الدنيا كما دخلتُها . . . ثم ولاَّها أخاه أبا العساكر سلطانَ بن علي ، وكان أصغر منه [2] » .

وسلطان هـذا لم يرزق أولاداً فى أول أمره ، فاصطفى لنفسه ابن أخيه ـ مؤلف الكتاب : أسامة بن مرشد ـ وكان يوليه عنايته ويعهد اليه بكثير من المهامّ ، ثم رزق أولاداً فى آخر أمره ، فأظهر التجنيَ على أخيه وأولاد أخيه ، وكان في الأمر بعضُ الستر فى حياة مرشد . وأما بعد وفاته فقد صارح سلطانُ أولادَ أخيه العداءَ وأخرجهم من الحصن كرها فى العام التالى سنة ٥٣٢ . وكان هـذا من فضل الله عليهم ، فنجوا من القتل تحت أنقاض الحصن فى سنة ٥٥٢ .

نشأته وأخباره

ولد أسامة يوم الأحد ٢٧ [3] جمادى الآخرة سنة ٤٨٨ (يوليو سنة ١٠٩٥) بقلعة شيزر . وقد حكى هو تاريخ ولادته فى الاعتبار (ص ١٢٤) . وكنيته « أبو المظفر » . ونقل ياقوت كنية أخرى له وهى « أبو أسامة » وقد وجدت كنية ثالثة له فى عنوان كتابه (البديع فى نقد الشعر) الموجود بمكتبة بلدية

(١) الاعتبار (ص ١٩٩ و ١٩٢ و ٥١) . (٢) عن ابن الأثير (١١ : ٨٨) والروضتين (١ : ١١١ — ١١٢) (٣) مضى فى (ص ١٦ س ٣) ٤٧ بدلا من ٢٧ وهو خطأ مطبعى ظاهر ونأسف لوقوعه.

الاسكندرية ، وهى « أبو الفوارس » والكنية الأولى أشهر ، ولم أجد مايؤيد الأخريين . ويلقب « مؤيد الدولة مجد الدين » .

ونشأ أسامة فى كنف أبويه وعمه وجدته ، وفى وسط أسرة من أعظم الأسر العربية ، أكثر رجالها فرسان محاربون من الطبقة الأولى ، وبعد ولادته بنحو سنتين بدأت الحروب الصليبية فى بلاد الشأم سنة ٤٩٠ ، ورباه أبوه على الشجاعة والفتوة والرجولة ، ومرّنَهُ على الفروسية والقتال ، وكان يخرجه معه إلى الصيد ، ويدفع به بين لهوات الأسود . فأخرج منه فارساً كاملا ، وسياسيا ماهراً ، ورجلا ثابتاً كالرواسى ، لاتزعزعه الأعاصير ، ولا تهوله النكبات والرزايا . فهو يقول عن نفسه بعد أن جاوز التسعين ، إذ يحكي بعض ما لقيَ من الأهوال : « فهذه نكبات تزعزع الجبال ، وتُفْنِي الأموال ، والله سبحانه يعوِّض برحمته ، ويختم بلطفه ومغفرته . وتلك وقعاتٌ كبار شاهدتها ، مضافةً إلى نكباتٍ نكبتُها ، سَلِمَتْ فيها النفسُ لتوقيت الآجال ، وأُجْحِفَتْ بهلاك المال » (الاعتبار ص٣٥) . ويقول أيضاً : « فلا يظنّ ظانٌّ أن الموتَ يقدمه ركوب الخَطَر ، ولا يؤخره شدةُ الحذَر ، ففى بَقَائِي أوضحُ مُعْتَبَر ، فكم لَقِيتُ من الأهوال ، وتَقَحَّمْتُ المخاوفَ والأخطار ، وَلاقيتُ الفرسان ، وقتلتُ الأسود ، وضُرِبْتُ بالسيوف ، وطُعِنْتُ بالرماح ، وجُرحتُ بالسهام والجُرُوخ [1] — وأنا من الأجل فى حصن حصين — إلى أن بلغتُ تمام التسعين . . . فأنا كما قلت :

مَعَ الثمانين عاثَ الدَّهرُ فى جَلَدِي ... وساءنى ضعفُ رِجْلِى واضطرابُ يَدِي

اذا كتبتُ فَخَطِّي جِدُّ مضطرِبٍ ... كخطِّ مرتعش الكفّين مُرْتَعِدِ

فَاعْجَبْ لضعفِ يدي عَنْ حَمْلِهَا قَلَماً ... مِنْ بعد حَطْم القَنَا في لَبَّةِ الأَسَدِ

(١) بالجيم فى أوله والخاء المعجمة فى آخره ، وهى : من أدوات الحرب ترمى عنها السهام والحجارة . والكلمة معربة عن التركية أو الكردية .

وإنْ مشَيْتُ وفى كفِّي العصا ثقُلَتْ   رِجلِي كأنِّي أخوضُ الوحلَ فى الجَلَد
فقُلْ لمن يتَمنَّى طُولَ مُدَّتِه   هَذِي عواقبُ طُولِ العمر والْمُدَدِ »
(الاعتبار ص ١٦٣ — ١٦٤) [١]

ولم يكتف أبوه بتربيته الحربية ، بل كان يحضر له الشيوخ الكبار ليعلموه هو وإخوته ، فسمع الحديث من الشيخ الصالح أبى الحسن علي بن سالم السِّنْبِسِي فى سنة ٤٩٩ كما فى تاريخ الاسلام للذهبى [٢] ، وقد روى عنه حديثاً فى أول (لباب الآداب ص ١) . وكان يؤدبه الشيخ العالم أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بابن المنيرة المتوفى سنة ٥٠٣ [٣] وقرأ علم النحو قريباً من عشر سنين على الشيخ العالم أبى عبد الله الطُّلَيْطِلي النحوي ، وكان فى النحو سيبويه زمانه . [٤]
والتوسُّعُ فى علم النحو هذه السنين الطويلة يستدعي كثرة الاطلاع على الشعر القديم ، وعلى غريب القرآن وتفسيره ، وعلى علوم البلاغة وما يتبعها . وكان الأمراء بنو منقذ ممن يقصدهم الأدباء والشعراء ، يمدحونهم ويسترفدونهم ، وكانوا هم أيضا علماء شعراء ، فاقتبس أسامة من هذا المجتمع الأدبي الذي نشأ فيه أدباً جمًّا ، وعلماً واسعاً ، وحفظ كثيراً من الشعر القديم ، فقد نقل الحافظ الذهبى فى تاريخ الاسلام عن الحافظ أبي سعد السمعاني قال : « قال لى أبو المظفر — يعنى أسامة — أحفَظُ أكثَرَ من عشرين ألف بيتٍ من شعر الجاهلية » [٥] . وصار

---

(١) الأبيات أيضا فى الروضتين (١ : ١١٤)   (٢) مخطوط بدار الكتب المصرية
(٣) الاعتبار (ص٨٥) ولباب الآداب (ص١٠١ و ١٩٠)   (٤) الاعتبار (ص ٢٠٨)
(٥) ينشر الأستاذ (فيليب حتي) سحابة من الشك على هذه الرواية فى ترجمته للمؤلف ، ويقول : « الراجح أنه لم يتصل بجيل أسامة هذا المقدار من الأبيات ، وأظنه لو اطلع اطلاعا واسعا على ما بين أيدينا الآن من الشعر المنسوب لشعراء الجاهلية ، ونظر إلى ما فقد من كتب الاسلام ، وآثار العلماء والحفاظ ، فى الحروب الصليبية ، وفى هجوم التتر على البلاد الاسلامية ، ثم فى الفتن والأحداث ، ثم ما أخذته أوروبا من الكتب ـ بعد أن خرجت باحتكاكها بالمسلمين من ظلمات الجهالة إلى نور العلم ـ إما بالشراء وإما اختلاسا وانتهابا ـ : لو نظر إلى هذا كله لم يكن لديه أي شك فى أن الشعر الجاهلي كان أكثر مما حفظ أسامة .

شاعراً فحلاً . حتى كان السلطان صلاح الدين الأيوبي لشغفه بديوان شعره يفضله على جميع الدواوين .[1]

ولما خرج أسامة من شيزر سنة ٥٣٢ أقام بدمشق نحواً من ثمان سنين فى رعاية صديقه وظهيره الأمير معين الدين أُنَر وزير شهاب الدين محمود ، حتى نَبَتْ به دمشق « كما تَنبُو الدار بالكريم »[2] . فسار إلى مصر فدخلها يوم الخميس ٢ جمادى الآخرة سنة ٥٣٩ قال : « فأقرّني الحافظ لدين الله — يعني الخليفة الفاطمي عبد المجيد بن المنتصر بالله العلوي — ساعةَ وصولى ، فخَلَعَ عليَّ بين يديه ، ودفع لى تخت ثياب ومائة دينار ، وخوّلنى دخول الحمام ، وأنزلنى فى دار من دور الأفضل بن أمير الجيوش ، فى غاية الحسن ، وفيها بُسُطها وفرشها ومرتبة كبيرة وآلتها من النحاس ، كل ذلك لا يستعادُ منه شيء ، وأقمت بها مدةً فى إكرام واحترام ، وإنعام متواصل »[3] . ثم مات الخليفة الحافظ وولي الخلافة ابنه الأصغر (الظافر بأمر الله أبو منصور اسمعيل) وكان عمره ١٧ سنة تقريبا ، ووثب على الوزارة سيف الدين أبو الحسن (علي بن السلار) فخلع عليه الخليفة خلع الوزارة ، ولقبه (الملك العادل) . وأرسلَ ابنُ السلار أسامةَ فى مهمة حربية سياسية لدى (الملك العادل نور الدين بن زنكى) و بعد وقائع وحروب عاد إلى مصر باستدعاء ابن السلار ، ومكث فيها إلى سنة ٥٤٩ ثم خرج منها مكرها بعد قتل الخليفة الظافر . وقد وقعت فى مصر فى هذه السنوات الخمس مدة خلافته (٥٤٤ — ٥٤٩) أحداث وفتن كبار ، قتل فيها ابن السلار الوزير والظافر الخليفة . واتهم المؤرخون أسامة بأن له يداً فى قتلهما ، بل بأنه هو الذى حرّض

(١) نقل هذا فى الروضتين (١ : ٢٦٤) عن العماد الأصبهانى الكاتب . (٢) عن الخريدة للعماد الكاتب (مصور فتوغرافى بدار الكتب المصرية) ونقله عنه أيضا ابن خلكان وياقوت .
(٣) الاعتبار (ص٦) .

على هذه الجرائم المنكرة [1] . وقد برأه الله من أن يغمس يده فى الدماء البريئة . وإنما اتُّهم بذلك افتراء واتباعاً للشائعات الكاذبة التى أشاعها ذوو الأغراض من الدساسين . وأسامة حكى فى الاعتبار تفاصيل هذه الحوادث [2]، والقارئ المنصف يتبين له أن الرجل برىء مما نسب إليه زوراً وبهتانا .

وسنفصل القول فى ذلك فى ترجمته المطولة التى سننشرها قريباً إن شاء الله .

ذهب أسامة من مصر إلى دمشق فأقام بها مدة . ثم انتقل بأهله وولده إلى « حصن كَيْفَا » [3] وأقام بها إلى أن أخذ السلطان صلاح الدين الأيوبي دمشق فى ربيع الأول سنة ٥٧٠ ، وكان الأمير عضد الدين أبو الفوارس « مُرْهَف بن أسامة » جليس صلاح الدين وأنيسه ، ولم يزل مشغولاً بذكر أسامة ، مشتهراً باشاعة نظمه ونثره ، فاستدعاه إلى دمشق ، وهو شيخ قد جاوز الثمانين [4] . قال العماد : « فلما جاء مؤيد الدولة - يعنى أسامة - أنزله أرحب منزل ، وأورده أعذب منهل ، ومَلَّكَهُ من أعمال المعرَّة ضَيعةً زعم أنها كانت قديماً تجرى فى أملاكه ، وأعطاه بدمشق داراً وإدْرَاراً . وإذا كان - يعني السلطان صلاح الدين - بدمشق جالسه وآنسه ، وذاكره فى الأدب ودارسه ، وكان ذَا رَأي وتجربة ، وحنكة مهذبة ، فهو يستشيره فى نوائبه ، ويستنير برأيه فى غياهبه . وإذا غاب عنه فى غزواته كاتَبَه ، وأعلمه بواقعاته ووقعاته ، واستخرج رأيه فى كشف مهماته ، وحلّ مشكلاته » [5] .

ومكث أسامة فى دمشق إلى أن مات بها ليلة الثلاثاء ٢٣ رمضان سنة ٥٨٤

---

(١) أنظر ابن الأثير (١١ : ٧٥و٧٨) وتاريخ أبى الفداء (٣ : ٢٧ و ٢٨) وابن خلكان (١ : ٩٧ و ٤٦٨) والنجوم الزاهرة (٥ : ٢٨٨ — ٢٨٩و٢٩٣و٣٠٩) وابن خلدون (٤ : ٧٤ — ٧٥) وخطط المقريزى (٣ : ٤٦ — ٤٨). (٢) ص (٦ — ٢٩) (٣) من أطراف العراق والشام قال ياقوت فى معجم البلدان : « هى بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة ، بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر ». (٤) انظر تاريخ الاسلام ، ومعجم الأدباء (٢ : ١٧٠) والروضتين (١ : ٢٦٤).
(٥) عن الروضتين (١ : ٢٦٤) .

(نوفمبر سنة ١١٨٨) فعاش رحمه الله يوم ٢٥ شهر ٢ سنة ٩٦ بالحساب الهجري .

وأخباره رضي الله عنه كثيرة ، وآثاره عظيمة . حكى منها كثيراً فى كتابه (الاعتبار) .

ثناء العلماء عليه

وصفه الذهبي فى تاريخ الاسلام بأنه « أحد أبطال الاسلام ، ورئيس الشعراء الأعلام » . وقال ياقوت فى معجم الأدباء (٢ : ١٧٤) : « وفى بنى منقذ جماعة أمراء شعراء ، لكن أسامة أشعرهم وأشهرهم » . وقال العماد الأصبهانى الكاتب : « وأسامة كاسمه ، فى قوة نثره ونظمه ، يلوح من كلامه أمارة الامارة ، ويؤسس بيتَ قريضه عمارةُ العبارة ، حلو المجالسة ، حالي المساجلة ، ندي الندى بماء الفكاهة ، عالي النجم فى سماء النباهة ، معتدل التصاريف ، مطبوع التصانيف » .[1]

وقال أيضاً : « هذا مؤيد الدولة من الأمراء الفضلاء ، والكرماء الكبراء ، والسادة القادة العظماء . وقد متعه الله بالعمر وطول البقاء . وهو من المعدودين من شجعان الشام ، وفرسان الاسلام . ولم تزل بنو منقذ مُلاّك شيزر ، وقد جمعوا السيادة والمفخر . . . وكلهم من الأجواد الأمجاد . وما فيهم إلاّ ذو فضل وبذل ، وإحسان وعدل . وما منهم إلاّ مَنْ له نظم مطبوع ، وشعر مصنوع ، ومَنْ له قصيدة وله مقطوع . وهذا مؤيد الدولة أعرقهم فى الحسب ، وأعرفهم بالأدب[2] » .

وقال أيضا : وكنت قد طالعت مذيل السمعانى ، ووجدته قد وصفه وقرظه ، وأنشدني العامريُّ له بأصفهان من شعره ماحفظه ، وكنتُ أتمنى أبداً لقياه ، وأشيم على البعد حياه ، حتى لقيته فى صفر سنة ٧١ ـ يعنى ٥٧١ ـ بدمشق[3] »

---

(١) نقله ياقوت عن العماد . (٢) نقله فى الروضتين (١ : ٢٦٤) . (٣) عن خريدة القصر (مصور فتوغرافى بدار الكتب المصرية) وعن ياقوت (٢ : ١٧٠) وعن تاريخ الاسلام للذهبي .

وقال الحافظ ابن عساكر : « اجتمعت به بدمشق وأنشدني قصائد من شعره سنة ٥٥٨ وقال لى أبو عبد الله محمد بن الحسن بن الملحي : إن الأمير مؤيد الدولة أسامة شاعر أهل الدهر ، مالك عنان النظم والنثر ، متصرف فى معانيه ، لاحِقٌ بطبقة أبيه . ليس يستقصى وصفه بمعان ، ولا يعبر عن شرحها بلسان . فقصائده الطوال لايفرق بينها و بين شعر ابن الوليد ، ولا ينكر على منشدها نسبتها إلى لبيد . وهى على طرف لسانه ، بحسن بيانه ، غير محتفل بطولها ، ولا يتعثر لفظه العالي فى شيء من فضولها وأما المقطعات فأحلى من الشهد ، وألذّ من النوم بعد طول السهد ، فى كل معنى غريب وشرح عجيب [1] » .

وقد سمع منه من الكبراء الأجلاّء : الحافظ أبو سعد السمعانى عبد الكريم بن محمد (٥٠٦ — ٥٦٢) وهو صاحب كتاب الأنساب . والحافظ ابن عساكر ، وهو أبو القاسم علي بن الحسن (٤٩٩ — ٥٧١) صاحب تاريخ دمشق . والعماد الكاتب الأصبهانى ، واسمه محمد بن محمد بن حامد (٥١٩ ـ ٥٩٧) . والحافظ عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي (٥٤١ ـ ٦٠٠) وغيرهم .

مؤلفاته

(١) (لباب الآداب) ، وهو هذا الكتاب الذى نقدمه للقراء ، وألفه وهو ابن إحدى وتسعين سنة ، كما ذكر فى آخره ، ولم يطبع قبل الآن

(٢) (الاعتبار) ، وهو كتاب طريف فى سيرته وأحواله ، وألفه وهو ابن تسعين سنة ، كما نص على ذلك فيه (ص ١٦٣) . وقد طبع مرتين : الأولى فى ليدن سنة ١٨٨٤ ـ ١٨٨٦ باعتناء الأستاذ هرتويغ درنبُرغ . والثانية : فى مطبعة جامعة برنستون بالولايات المتحدة سنة ١٩٣٠ باعتناء الأستاذ فيليب حتي ، وهي

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر (٢ : ٤٠١) .

التى نشير إليها فى هذه الترجمة وفى تعليقاتنا على لباب الآداب .

(٣) (البديع فى نقد الشعر) . وهو كتاب جمع فيه ماتفرق فى كتب العلماء المتقدمين المصنفة فى نقد الشعر . كما قال فى مقدمته . وتوجد منه نسخة جيدة فى مكتبة بلدية الاسكندرية برقم (١٣٤٤ ب) وهى مكتوبة فى سنة ٧١١ وأوراقها ١٢٩ ورقة .

(٤) (التأسى والتسلى) أشار إليه فى لباب الآداب (ص ٢٩٤ و ٤١٠)

(٥) (الشيب والشباب) أشار إليه فى اللباب (ص ٣٧٧) وذكر ياقوت أنه ألفه لأبيه .

(٦) (النوم والأحلام) أشار إليه فى الاعتبار (ص١٨٦).

(٧) (أزهار الأنهار) ذكره صاحب كشف الظنون.

(٨) (التاريخ البدري) جمع فيه أسماء من شهد بدراً من الفريقين ، ذكره الذهبى [١]

(٩) (التجائر المربحة والمساعي المنجحة) ذكره صاحب كشف الظنون

(١٠) (كتاب القضاء) ذكره ياقوت . [٢]

(١١) (تاريخ القلاع والحصون)
(١٢) (نصيحة الرعاة)
(١٣) (أخبار النساء)
(١٤) (كتاب المنازل والأديار)

هذه الأربعة ذكرها الأستاذ فيليب حتي.

(١٥) (أخبار البلدان) فى مدة عمره . ذكره الذهبى .

(١٦) (ذيل يتيمة الدهر) ذكره ياقوت . وسماه الذهبى « ذيل خريدة

(١) سماه الأستاذ فيليب حتى « التاريخ البلدى » ، وهو خطأ واضح . (٢) سماه الأستاذ فيليب حتى « كتاب العصا » ، وهو خطأ.

القصر للباخرزى » وهو خطأ فان كتاب الباخرزى اسمه « دمية القصر » وهو ذيل اليتيمة .

(١٧) (ديوان شعره) ذكره ابن خلكان ، وذكر أنه فى جزأين ، وأنه رآه بخط أسامة ونقل منه .

(١٨) (كتاب فى أخبار أهله) هكذا ذكر ياقوت ، وقال إنه رآه . وذكر له كتاباً آخر باسم (كتاب تاريخ أيامه) ولم أذكره وحده ، لأني أرجح أنه يريد به كتاب (الاعتبار) .

ويظهر من كلام الأستاذ فيليب حتي أن بعض هذه الكتب يوجد مخطوطا فى بعض مكاتب أوروبا . وإن أجدرها بالنشر ديوان شعره ، فلعلنا نوفق إلى الحصول على نسخة منه ثم إلى طبعه ، إن شاء الله .

شيء من شعره

ذكر المؤلف بعض أشعاره فى هذا الكتاب (لباب الآداب) وهى فى الصفحات (٤٧ و١٨٤ و١٩٥ و٢٠٢ و٢٠٣ و٢٢٥ و٢٢٦ و٣٨٠ و٤١٨ و٤٢٩ و٤٥١) ومجموعها ٤٢ بيتاً .

وقد نقل الذين ترجموا له كثيراً من شعره . وسنذكر بعضه :

قال فى قلع ضرسه (عن الخريدة وياقوت وابن خلكان وغيرهم) :

وَصَاحِبٍ لاَ أَمَلُّ الدَّهْرَ صُحْبَتَهُ ... يَشْقَى لِنَفْعِي وَيَسْعَى سَعْيَ مجْتَهِدِ
لَمْ أَلْقَهُ مُذْ تَصَاحَبْنَا فحِينَ بَدَا ... لِنَاظِرَيَّ افترقْنَا فُرْقَةَ الأَبَدِ

ومن قديم شعره (عن الخريدة وياقوت والذهبى) :

قالوا : نَهَتْهُ الأربعونَ عن الصِّبَى ... وَأَخُو المشيبِ يَحُورُ ثُمَّتَ يَهْتَدِي
كَمْ حَارَ فِى ليلِ الشبابِ فَدَلَّهُ ... صُبْحُ المشيبِ على الطريقِ الأَقْصَدِ

وإذا عَدَدْتُ سِنِيَّ ثم نَقَصْتُهَا زَمَنَ الهُمُومِ فتلك ساعةُ مَوْلِدِي

ومن قديم شعره (عن الخريدة و ياقوت) :

لَمْ يَبْقَ لي فى هَوَاكُمُ أَرَبُ سَلَوْتُكُمْ والقلوبُ تَنْقَلِبُ
أَوْضَحْتُمُ لِي سُبُلَ السُّلُوِّ وَقَدْ كانتْ لِيَ الطُّرْقُ عنه تَنْشَعِبُ
إلامَ دَمْعِي مِنْ هَجْرِكُمْ سَرِبٌ قَانٍ ، وَقَلْبِي من غَدْرِكُمْ يَجِبُ ؟
إنْ كان هذا لِأَنْ تَعَبَّدَنِي الْـــحُبُّ فَقَدْ أَعْتَقَتْنِي الرِّيَبُ
أَحْبَبْتُكُمْ فَوْقَ مَا تَوَهَّمَهُ الـــنَّاسُ وَخُنْتُمُ أَضعافَ ما حَسِبُوا

وسأله العماد : هل لكَ معنى مبتكرٌ فى الشيب ؟ فأنشده (عن الخريدة و ياقوت) :

لو كانَ صَدَّ مُعَاتِباً ومُغَاضِبَا أَرْضَيْتُهُ وتركتُ خَدِّي شائبَا
لـكنْ رَأَى تلكَ النضارَةَ قَدْ ذَوَتْ لَمَّا غَدَا ماءُ الشَّبِيبَةِ نَاضِبَا
وَرَأَى النُّهَى بَعْدَ الغوايةِ صاحبي فَثَنَى العِنانَ يُرِيغُ غَيْرِي صاحبَا
وَأَبِيهِ مَا ظَلَمَ المَشِيبُ فانهُ أَمَلِي ، فقلتُ : عَسَاهُ عَني رَاغِبَا
أَنَا كالدُّجَى لَمَّا تَنَاهَى عُمْرُهُ نَشَرَتْ له أَيْدِي الصَّبَاحِ ذَوَائِبَا

ونقل ابن خلـكان من (ديوانه بخطه) قولَه :

لا تَسْتَعِرْ جَلَدًا على هجرانهمْ فَقُوَاكَ تَضْعُفُ مِنْ صُدُودٍ دَائِمِ
وَاعلمْ بأنك إنْ رجعتَ اليهمُ طوعاً ، وَإِلاَّ عُدْتَ عَوْدَةَ رَاغِمِ

ونقل منه أيضاً فى ابن طليب المصرى وقد احترقت دارُه :

أُنظُرْ الى الأيَّامِ كيف تَسُوقُنَا قَسْراً الى الإقْرارِ بالأقْدارِ
مَا أَوْقَدَ ابنُ طليب قَطُّ بِدَارِهِ نَارًا ، وكانَ خَرَابُها بالنَّار

ونقل منه أيضاً أبياتاً كتبها الى أبيه « مرشد » جوابا عن أبيات كتبها أبوه اليه ، وهي :

وما أشْكُو تَلَوُّنَ أهلِ وُدِّي ولو أَجْدَتْ شَكِيَّتُهُمْ شَكَوْتُ
مَلِلْتُ عِتَابَهمْ ويَئِسْتُ منهمْ فَمَا أرجوهُمُ فيمن رَجَوْتُ
اذا أَدْمَتْ قوارِضُهم فُؤادي كَظَمْتُ على أذاهُمْ وانْطَوَيْتُ
ورُحْتُ عليهمُ طَلْقَ المُحَيَّا كأنِّي ما سمعتُ ولا رأيتُ
تَجَنَّوْا لِي ذُنوباً ما جَنَتْهَا يَدَايَ ولا أمرتُ ولا نَهَيْتُ
ولا واللهِ ما أضمَرْتُ غدراً كما قد أظهروه ولا نَوَيْتُ
ويومُ الحشرِ موعدُنا وتَبْدُو صحيفةُ ما جَنَوْهُ وما جَنَيْتُ

قال ابن خلكان : « وله بيتان في هذا الرويّ والوزن ، كتبهما في صدر كتاب الى بعض أهل بيته ، في غاية الرقة والحسن ، وهما » :

شَكَا أَلَمَ الفراقِ الناسُ قَبْلي وَرُوِّعَ بالنَّوَى حَيٌّ وَمَيْتُ
وأمّا مثلَ ما ضَمَّتْ ضُلُوعِي فإني ما سَمِعتُ ولا رأيتُ

وقال في محبوس (عن الخريدة وياقوت) :

حَبَسُوكَ والطَّيرُ النَّوَاطِقُ إنَّمَا حُبِسَتْ لِمِيزَتِهَا على الأَنْدَادِ
وتَهَيَّبُوكَ وَأَنْتَ مُودَعُ سِجْنِهِمْ وكذا السيوفُ تُهَابُ في الأغمادِ
مَا الحَبْسُ دارُ مَهَانَةٍ لِذَوِي العُلَى لكنَّهُ كالغِيلِ لِلآسَادِ

وقال في الشمعة (عن الخريدة وياقوت) :

انظرْ الى حُسْنِ صَبْرِ الشمعِ يُظْهِرُ لِلـ رَّائِينَ نوراً وفيه النارُ تَسْتَعِرُ
كذا الكريمُ تَرَاهُ ضاحِكاً جَذِلاً وقَلْبُهُ بِدَخِيلِ الغَمِّ مُنْفَطِرُ

وقال أيضا (عن الخريدة):

لأرْمِيَنَّ بنفسي كلَّ مَهْلَكَةٍ مَخُوفةٍ يتحاماها ذوو البأسِ
حتى أصادفَ حَتْفِي فهو أجملُ بي مِنَ الخمول، وأستغني عن الناسِ

وقال أيضا (عن الخريدة وياقوت):

نَاقَتْ دهري فوجهي ضاحكٌ جَذِلٌ طَلْقٌ، وقلبي كئيبٌ مُكْمَدٌ باكِ
وراحةُ القلبِ فى الشكوى ولَذَّتُها لو أمكنتْ لا تُساوي ذِلَّةَ الشاكي

وقال من قديم شعره (عن الخريدة وياقوت):

لئنْ غضَّ دهري مِنْ جماحي أو ثَنَى عِنَاني أو زَلَّتْ بإخمصي النَّعلُ
تَظَاهرَ قومٌ بالشَّمَاتِ جَهَالَةً وكَمْ إحْنَةٌ فى الصدرِ أبرزَها الجهلُ
وَهَلْ أنا إلاَّ السَّيفُ فَلَّ حَدَّهُ قِرَاعُ الأعادِي ثم أرْهَفَهُ الصَّقْلُ

قال أسامة فى الاعتبار (ص ١٦٠ — ١٦١): «ولم أدرِ أن الكِبَرَ عامٌّ، يعدي كلّ من أغفله الحِمام. فلمّا توقّلْتُ ذروة التسعين، وأبلانى مَرُّ الأيام والسنين، صرتُ كجواد العلاّف، لا الجواد المتلاف، ولصقتُ من الضعف بالأرض، ودخل من الكِبَرِ بعضي في بعض، حتى أنكرتُ نفسي، وتحسَّرتُ على أمسي، وقلتُ في وصف حالي:

لمَّا بلغتُ من الحياةِ الى مَدَى قد كنتُ أهواهُ تَمَنَّيْتُ الرَدَى
لم يُبقِ طولُ العمْرِ مِنِّى مُنَّةً أَلْقَى بها صَرْفَ الزمانِ اذا اعْتَدَى
ضَعُفَتْ قُوَاي وَخَانَني الثِّقتَانِ مِنْ بَصَرِي وسَمْعِي حين شَارَفْتُ المَدَى
فاذَا نهضتُ حَسِبْتُ أني حَاملٌ جَبَلاً، وأَمْشِي إنْ مَشَيْتُ مُقيَّدَا

وَأَدِبُّ فِي كَفِّي العَصَا وَعَهِدْتُهَا ... فِي الحَرْبِ تَحْمِلُ أَسْمَراً وَمُهَنَّدَا
وَأَبِيتُ فِي لِينِ المِهَادِ مُسَهَّداً ... قَلِقاً كَأَنِّي افْتَرَشْتُ الجَلْمَدَا
وَالمَرْءُ يُنْكَسُ فِي الحَيَاةِ، وَبَيْنَمَا ... بَلَغَ الكَمَالَ وَتَمَّ عَادَ كَمَا بَدَا

وأنا القائل بمصر، أَذُمُّ من العيش الراحةَ وَالدَّعَة، وما كان أَعْجَلَ تَقَضِّيه وَأَسْرَعَه ! (1) :

أُنْظُرْ إِلَى صَرْفِ دَهْرِي كَيْفَ عَوَّدَنِي ... بَعْدَ المَشِيبِ سِوَى عَادَاتِيَ الأُوَلِ
وَفِي تَغَايُرِ صَرْفِ الدَّهْرِ مُعْتَبَرٌ ... وَأَيُّ حَالٍ عَلَى الأَيَّامِ لَمْ تَحُلِ
قَدْ كُنْتُ مِسْعَرَ حَرْبٍ كُلَّمَا خَمَدَتْ ... أَذْكَيْتُهَا بِاقْتِدَاحِ البِيضِ فِي القُلَلِ
هَمِّي مُنَازَلَةُ الأَقْرَانِ أَحْسِبُهُمْ ... فَرَائِسِي، فَهُمُ مِنِّي عَلَى وَجَلِ
أَمْضَى عَلَى الهَوْلِ مِنْ لَيْلٍ، وَأَهْجَمُ مِنْ ... سَيْلٍ، وَأَقْدَمُ فِي الهَيْجَاءِ مِنْ أَجَلِ
فَصِرْتُ كَالغَادَةِ المِكْسَالِ مَضْجَعُهَا ... عَلَى الحَشَايَا وَرَاءَ السَّجْفِ وَالكِلَلِ
قَدْ كِدْتُ أَعْفَنُ مِنْ طُولِ الثَّوَاءِ كَمَا ... يَصْدِي المُهَنَّدُ طُولَ اللُّبْثِ فِي الخِلَلِ
أَرُوحُ بَعْدَ دُرُوعِ الحَرْبِ فِي حُلَلٍ ... مِنَ الدَّبِيقِي، فَبُؤْساً لِي وَلِلْحُلَلِ
وَمَا الرَّفَاهَةُ مِنْ رَأْيِي وَلاَ أَرَبِي ... وَلاَ التَّنَعُّمُ مِنْ شَانِي وَلاَ شُغُلِي
وَلَسْتُ أَرْضَى بُلُوغَ المَجْدِ فِي رَفَهٍ ... وَلاَ العُلَى دُونَ حَطْمِ البِيضِ وَالأَسَلِ

وكنتُ أظنُّ أن الزمانَ لا يَبْلَى جديدُه، ولا يَهِي شديدُه، وأني إذا عدتُ إلى الشأم وجدتُ به أيامي كعهدي، ماغيَّرَها الزمانُ بعدي. فلما عدتُ كَذَبَتْني وعودُ المطامع، وكان ذلك الظنُّ كالسراب اللامع. اللهم غَفْراً: هذه جملة اعتراضية عرضتْ، ونفثةُ هَمٍّ أقضَّتْ ثمَّ انقضتْ».

(1) الأبيات الآتية رواها ابن عساكر أيضاً (٢ : ٤٠٣)

وقال يمدح السلطان صلاح الدين الأيوبي بعد اجتماعه به في دمشق سنة ٥٧٠ (عن الروضتين ١ : ٢٦٤) :

حَمِدْتُ عَلَى طُولِ عُمْرِي المَشِيبَا وَإِنْ كُنْتُ أَكْثَرْتُ فِيهِ الذُّنُوبَا
لِأَنِّي حَيِيتُ إِلى أَنْ لَقِيتُ بَعْدَ العَدُوِّ صَدِيقاً حَبِيبَا

وفي هذا القدر كفاية الآن ، وقد كنتُ إذ شرعت في ترجمته بدا لي أن أستوعبَ أحواله وأحوالَ أسرته ، وأستقصيَ ما أجده من شعره ومناسباته ، ولكني وجدتُ مجالَ القول ذا سعةٍ ، وأن المقامَ يضيق بهذا التوسع في مقدمة كتابٍ ، فعزمت على إفراد ذلك في جزء خاصّ . وأسأل الله سبحانه أن يوفقني لاتمامه ونشره ، إنه سميع الدعاء ؟

كتبه
أبو الأشبال
أحمد محمد شاكر